فنون الإنسان في العصر الحجري (الحديث – المعدني)

فن الفخار:

استخدم الإنسان قبل اختراع الفخار آنية كانت تنسج من أغصان الاشجار وتطلى من الداخل بالجبس لجعلها قابلة لفظ السوائل واستخدام كذلك آنية من الطين كانت تجفف بالشمس وانية اخرى كانت تعمل من الحجر أو الخشب أو الجلود في تأدية متطلبات حياته اليومية. بعدها جاء اختراع الفخار بعد أن عرف الانسان امكانية تصلب الطين عند تعرضه لحرارة النار. وقد كان اختراع الفخار في البداية ضرورة ملحة لخزن ما يزيد عن حاجة المزارعين من حبوب لاستخدامها عند الحاجة، ثم تطورت وتنوعت استخدامات الفخار في الدفن والطقوس والشعائر الدينية والطبخ ونقل الماء وخزن السوائل المختلفة.

والمتتبع لتقنية صناعة فخاريات هذا العصر يرى أنها بدأت بسيطة ذات صناعة ساذجة، اذ أن الانية كانت تشكل باليد من قبل ربات البيوت ومن طينة غير نقية تحتوي على الشوائب الطبيعية تمزج بدون اعتناء بقطع كبيرة نوعا ما من التبن. ومعظم الانية تتميز بسطوح خشنة غير مطلية وغير مدلوكة، وأسلوب حرق الفخاريات كان رديئا فمعظمها تكون هشة. كما أن أشكال الانية كانت قليلة التنوع لقلة استعمالاتها وتقتصر على أشكال الجرار jars والطاسات bowls.

أما زخارف الانية فكانت بسيطة وتظهر غالبا على السطوح الخارجية للآنية وتتألف من وحدات هندسية تشتمل على أشكال الخطوط المستقيمة والمتكسرة والمتموجة، وكانت تفتقر الى الاناقة وحسن التنظيم والاهتمام والدقة. وهي أحادية اللون تنتج من استخدام تربة أوكسيدية تعرف بالمغرة الحمراء وتضاف على سطوح الانية بعد مزجها بالماء وقليل من الصمغ للتثبيت فتكسبها الحرارة لونا بنيا أو أحمرا في أغلب الاحيان. وعندما دخلت صناعة الفخار مجال الحرفة الفنية في أواسط وأواخر هذا العصر حدثت نقلة كبيرة في تقنية صناعة الفخاريات، فقد أصبحت الآنية

تعمل من طينة مغسولة ومنقاة من الشوائب بشكل جيد والآنية تكون ناعمة السطوح مدلوكة دلكاً جيداً ومطلية بطلاء ناعم من نفس الطينة يستخدم كأرضية لرسم النقوش الزخرفية. وأسلوب حرق الآنية أصبح جيداً باستخدام تنانير أو كور خاصة. فمعظم الآنية تكون صلبة جيدة الحرق. وأشكال الآنية تنوعت تنوعاً كبيراً يتفق مع تنوع استخدامها واشتملت على أشكال الجرار والطاسات والصحون والكؤوس والقوارير والأكواب. أما زخارف الآنية فقد أصبحت تنظم على سطوح الآنية الخارجية والداخلية أو كليهما معاً تنظيماً جيداً يشير إلى مهارة فائقة ودقة متناهية في التنفيذ. وزخارف الآنية تنوعت تنوعاً كبيراً فبالإضافة إلى استخدام اللون. ظهرت زخارف بشكل حزوز وأخرى بشكل منحوتات بارزة أو مجسمة كانت تضاف على سطوح الآنية فتؤلف تصاميم زخرفية غاية في الجمال والإبداع).

والزخارف الملونة تنوعت تنوعاً كبيراً فاشتملت على مشاهد هندسية وأخرى طبيعية كانت ترسم بلون أو لونين أو ثلاثة ألوان على نفس الإناء وأكثر الألوان شيوعاً هي الأسود والأحمر والنبي والأصفر وقد تم التوصل إلى تنويه اللون باختلاف مادة التلوين ودرجة الحرارة. والمشاهد الهندسية أصبحت تنفذ بمهارة عالية واكتسبت تنوعاً أكثر من السابق فبالإضافة إلى أشكال الخطوط هناك أشكال الزوايا والمربعات والمستطيلات والدوائر والتي كانت تؤلف بشكل تصاميم زخرفية هندسية معقدة نوعا ما يرجح أن لها علاقة بزخارف لملابس أو زخارف الأشياء المستخدمة من قبل إنسان ذلك العصر، أما الزخارف الطبيعية فيرجح أن تكون مشاهدها منقولة أو مستوفاة من بيئة الفخار بين- الطبيعة وتشتمل على أشكال العقارب والوعول والضفادع والأسماك والثيران والنمور وأشكال الشمس والقمر والنجوم بالإضافة إلى اشكال النباتات والأزهار. وإضافة لذلك هناك نقوش طبيعية تحتوي على أشكال الحيوانات والبشر مما في فعاليات متنوعة قد تشير إلى الصيد تارة أو إلى رقصات طقوسية خاصة تارة أخرى.

وقد كانت أشكال البشر والحيوانات تنفذ بأسلوب تقريبي فتبدو قريبة الشبه بأشكالها الطبيعية ويعتمد هذا الأسلوب على تحديد أشكالها بالخطوط وملئ مساحاتها الداخلية باللون أو تركها بدون تلوين. وجميع هذه المشاهد كانت ترتب وتنظم على سطوح الآنية حسب المساحة المتاحة وشكل الإناء فتكسبها جمالية كبيرة وربما أهمية خاصة.

وقد ازدهرت في هذا العصر أربع صناعات فخارية رئيسية نالت شهرة كبيرة في عالم الفنون القديمة وهي:

1- فخاريات حسونة:

وتمثل أقدم صناعة فخارية في العراق القديم، وسميت بهذا الاسم لاكتشافها في موقع تل حسونة قرب الموصل وانتشرت صناعتها بصورة رئيسية حول مدينة الموصل وقد ميز مؤرخو الفخار صناعتين أساسيتين لفخاريات حسونة الأولى وهي الأقدم تسمى بفخاريات حسونة القديمة أما الثانية فتسمى بفخاريات حسونة النموذجية. وبشكل عام عملت فخاريات حسونة باستعمال اليد من طينة غير نقية ومعظم آنيتها تتميز بسطوح خشنة، ومحروقة بتنانير بسية حرقا غير جيد نظراً لكونها نتاجات بيتية، إذ لم تدخل الصنعة بعد مجال الخزافين المتخصصين.

وتضم فخاريات حسونة أشكالاً قليلة فأغلب آنيتها تكون بشكل طاسات متنوعة العمق أو جراراً كروية الشكل، عملت لتلبية متطلبات مزارعي هذا العصر في الخزن ولتحضير الطعام وطهيه ونقل السوائل. وزينت فخاريات حسونة بنوعين من الزخارف أحدهما زخارف محززة تعتمد على تزيين أكتاف الآنية وخصوصاً الجرار بشريط أفقي أو عمودي من أشكال الحزوز القصيرة والقليلة العمق، وكانت تنفذ بأداة حادة عندما تكون سطوح الآنية في حالة رطبة لتؤلف مشاهد هندسية بسيطة. وهذه سميت بفخاريات حسونة المحززة. أما النوع الثاني فكان ينفذ باستخدام لون واحد يكون بنياً أو أحمراً في أغلب الأحيان وبشكل زخارف هندسية تظهر على السطوح الخارجية، وتمثل أشكالاً هندسية يحتمل أن لها علاقة بأشكال مشاهدها بتسييح الآنية التي كانت تشكل من أغصان الأشجار قبل معرفة الإنسان بصناعة الفخار. وإضافة لذلك فأن بعض فخاريات حسونة تتميز بزخارف محززة وأخرى ملونة الفت معا بشكل مشاهد هندسية على نفس الإناء وعرفت بفخاريات حسونة المحززة والملونة.

2- فخاريات سامراء:

وتعاصرت زمنياً أواخر فترة فخاريات حسونة، واستمرت زمناً بعد زوالها، وسميت بهذا الاسم لاكتشافها أول مرة تحت أنقاض مدينة سامراء الإسلامية من قبل الأستاذ هيرسفلد عام

1911م. وانتشرت صناعتها بصورة رئيسية في القسم الأوسط من العراق حول مدينة سامراء وظهرت صناعات محلية منها في شمال العراق ونماذج قليلة منها في شمال سوريا.

تدلل صناعة فخاريات سامراء على حدوث تطور كبير في صناعة فخاريات هذه المرحلة بخصوص جودة تقنية العمل، ودقة الزخارف وتنوعها بسبب دخول الصنعة مجال الخزافين المختصين. فمعظم الآنية شكلت باليد من طينة مغسولة من الشوائب وممزوجة بقليل من دقائق الرمل الناعمة كمحاولة من قبل الفخار لزيادة قابلية الطينة في مطاوعة أنامل اليد. وتتميز فخاريات سامراء بسطوح ناعمة الملمس مدلوكة ومطلية بطبقة من طينة نقية جداً، وأغلبها محروقا حرقاً جيداً وبدرجات حرارة عالية نوعاً ما. وشهدت فخاريات سامراء تنوعا كبيراً بأشكال آنيتها، فبالإضافة لتنوع أشكال الجرار والطاسات هناك أشكال الكؤوس والصحون. وزينت فخاريات سامراء كفخاريات حسونة بزخارف محزز، وزخارف ملونة إلا أن الزخارف هنا أكثر تنوعا ونفذت بأسلوب دقيق جداً يشير إلى مهارة متخصصة عالية في تزيين الفخار، فالزخارف المحززة أصبحت مهندمة أكثر وتكون بشكل وخزات عميقة تؤلف أشكالا هندسية بسيطة، أما الزخارف الملونة فإنها ترسم بلون واحد يكون أكثر تنوعاً من فخاريات حسونة، فهناك اللون الأحمر والبني المحمر والبني المائل للأسود والأسود المائل للإخضرار. والمشاهد الزخرفية تظهر على السطوح الخارجية أو الداخلية وتمتد لتغطي أكبر مساحة من سطح الإناء وتشتمل على مشاهد هندسية وأخرى طبيعية. فالمشاهد الهندسية أصبحت تنفذ بدقة متناهية وتؤلف تصاميم هندسية مزدحمة لنماذج متنوعة من أشكال الخطوط وأشكالاً هندسية أخرى كالمثلثات والمعنيات والزوايا والدوائر والمربعات. أما المشاهد الطبيعية فتظهر في أغلب الأحيان على السطوح الداخلية لأرضيات الصحون، والتي وجد فيها صانع الفخار أفضل مساحة لممارسة فن الرسم، لتصوير معتقداته وآرائه وربما ذكرياته أيضا بمشاهد كانت لمواضيعها صلة قوية ببيئة الفخار الزراعية البسيطة. ويعتمد إنجاز هذه المشاهد على تقسيم أرضيات الصحون الدائرية الشكل إلى عدة أقسام بواسطة خطوط متعامدة، ويوضع في كل قسم عنصر من عناصر المشهد الطبيعية. وأكثر المواضيع ظهوراً هي ما عرف لدى مؤرخي الفخار بأشكال النسوة الراقصات فهنا توزعت أربع أو أكثر من أشكال النساء على ارضية الإناء بنظام صليبي وهن يلوحن بأيديهن في الهواء يحتمل أنهن يؤدين رقصة طقوسية لاجتذاب المطر وهو العنصر الضروري لزراعة وحضارة سامراء

الديمية. وفي بعض الأحيان تستبدل أشكال النسوة بأشكال الوعول وبنفس الترتيب وفي بدورة من الحركة القوية ربما للإفلات من شبكة صياد عنيد أمسكت بها بقوة. وتستبدل بأشكال الطيور المائية وهي تلتقط أسماكاً صغيرة في بركة ماء يكثر وجودها في مناطق ازدهار فخار سامراء. فمثل هذه المشاهد وغيرها نقلت نقلاً صادقاً من مشاهدات الفنان لما يجري حوله من فعاليات في الطبيعة.

3- فخاريات حلف

وتعاصر أواخر سامراء واستمرت بعد زوال صناعة فخار سامراء، وسميت بهذا الاسم لاكتشافها أول مرة في موقع تل حلف شمال سوريا من قبل الاستاذ أوبنهايم. وانتشرت فخاريات حلف بصورة رئيسية في شمال العراق حول مدينة الموصل وفي شمال سوريا.

تمثل فخاريات حلف أجمل صناعة فخارية في العراق. فهي معمولة من طينة نقية جدا مغسولة ومنقاة من الشوائب بشكل جيد، وتم تشكيل وفخر آنيتها بعناية فائقة. ومعظم آنيتها تتميز بجوانب رقيقة جداً ولها سطوح نعمة الملمس مدلوكة دلكاً جيداً ومطلية بطينة نقية طلاءً ناعماً يميل للإحمرار. وتتنوع أشكال آنيتها تنوعاً كبيرا، فهناك أشكال الطاسات والجرار والصحون والكؤوس والدوارق والأكواب والمزهريات، والتي شهدت تنوعاً أيضا في كل شكل من أشكالها الرئيسية، أما مشاهدها الزخرفية فأهم ما يميزها هو تنوع الألوان الكبير في المشهد الواحد بعد أن كانت ألوان المشاهد تقتصر على لون واحد في فخار حسونة وفخار سامراء. ففي فخاريات حلف تنفذ المشاهد باستخدام اللون الأبيض والأسود والبني والأحمر معاً وفي تصميم زخرفي واحد، فأكسبت المشاهد جمالاً بديعاً نتيجة لتنوع اللون. ولعل تنوع الألوان هذا ويرجع إلى المهارة العالية في التحكم بدرجات حرارة الحرق عند إضافة الألوان بدرجات حرارة مختلفة خلال عملية الفخر. وتمثل نقوش فخاريات حلف الملونة مشاهد هندسية وأخرى طبيعية، فالمشاهد الهندسية تشتمل على تراكيب من اشكال هندسية كأشكال الخطوط بأنواعها وأشكال الدوائر والزوايا والمثلثات والمعينات والنقاط، والتي تؤلف مشهداً معقدا في بعض الأحيان كأشكال لوحة الشطرنج وشكل حراشف الأسماك، وقد نفذت بعناية واهتمام كبيرين.

أم المشاهد الطبيعية فأكثرها ظهوراً اشكال قرون الثور Bukranum وأشكال الأزهار والطيور والتي مثلت بأوضاع متنوعة، فتارة تظهر في وضع الطيران أو تظهر واقفة على الأرض

تارة أخرى. وإضافة لذلك هناك أشكال الوعول وأشكال الشمس والنجوم وكانت مثل هذه الأشكال الطبيعية تخطط بخطوط بسيطة فتظهر بأشكال تقريبية، تنظم عادة في حقول أفقية على سطوح الآنية الخارجية أو تنشر نشراً حراً على أرضيات الصحون.

فخاريات العبيد:

وهي آخر صناعة فخارية من فخاريات العصر الحجري– المعدني، وسميت بهذا الاسم لاكتشافها أول مرة في تل العبيد في العراق، وهي أقدم صناعة فخارية في جنوب العراق، إلا أنها ظهرت كذلك في شمال العراق وشمال سوريا وجنوب تركيا. عملت فخاريات العبيد من طينة نقية ممزوجة بدقائق صـــغيرة من التبن والرمل. ومحروقة بدرجات حرارة عالية لذلك يميل لونها إلى التبني المائل للإخضرار. وأغلب الآنية تتميز بسطوح ناعمة مدلوكة دلكاً جيداً. ونقوشها الزخرفية منفذة بلون واحد وهو اللون الأسود في معظم الأحيان.